شبهات وردود

بطلان شبهة دار الإفتاء المصرية
في التفريق في دعاء غير الله بين السببية والتأثير

فضيلة الشيخ عبد الله بن صالح العبيلان

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]

وقال تعالى : ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤]

وفيها من العلم: عن مجاهد، في قوله: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ»، قال: قريش تقوله للأوثان، ومن قبلهم يقوله للملائكة ولعيسى ابن مريم ولعزير.

عن قتادة، قوله: «وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ» قالوا: ما نعبد هؤلاء إلا ليقربونا، إلا ليشفعوا لنا عند الله، وعن السدي، في قوله: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ» قال: هي منزلة.

وعن ابن زيد في قوله: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ» قال: قالوا هم شفعاؤنا عند الله، وهم الذين يقربوننا إلى الله زلفى يوم القيامة للأوثان، والزلفى: القرب أخرجها الطبري جميعها.

وفيها : بيان بطلان ما صدر من

دار الإفتاء المصرية في جواز طلب المدد من الانبياء والأولياء والصالحين أحياء أو أمواتا؛ لأنه محمول بزعمهم على السببية لا على التأثير، ولا ريب أن هذا هو عين ما وقع فيه المشركون، وقد بين الله ذلك بياناً تاماً في كتابه العزيز، فالشرك أنواع وضروب، أدناها ما يتبادر إلى أذهان كثيرمن عامة المسلمين أنه العبادة لغير الله كالركوع والسجود له، وأشدها وأقواها ما سماه الله دعاء واستشفاعا، وهو التوسل بهم إلى الله وتوسيطهم بينهم وبينه تعالى، فهذا المعنى هوأشد أنواع الشرك، و أقوى مظاهره التي يتجلى فيها معناه أتم التجلي، وهو الذي لا ينفع معه صلاةٌ ولا صيامٌ ولا عبادةٌ .

واعلم رحمك الله أن الذين يعبدون من دون الله إلهاً أو آلهة أصناف:

الصنف الأول: هم الذين ذكرهم الله عنهم بقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]

فهذا الصنف من المشركين يؤمنون بالله تعالى، ولا يعتقدون فيما يعبدونه من دون الله مشاركةً لله لا في الخلق ولا في التصرف في أحوال أهل الأرض؛ من رزق وصحة وحمل وولادة ونحوذلك. وإنما يعتقدون فيهم أنّ الله تعالى قد جعلهم وسطاء بينه وبين عباده، وأنه لا يتمّ تقرّب العبد إلى الله تعالى إلا بواسطتهم، وعن طريق تقريب هذا الوسيط لهم إلى الله تعالى، وبهذا يظهر جليًا أن طلب الشفاعة من النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد موته من الشرك الأكبر؛ لأنه صرف العبادة لغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو من خصائصه سبحانه، قال تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]

وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤]

وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]

وسؤال الأموات هو عين ماوقع فيه المشركون قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧]

والصنف الثاني: هم الذين ذكرهم الله تعالى عنهم بقوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٧-١٨]

فهذا الصنف من المشركين لم يكونوا يعبدون آلهتهم لأجل أن تنفعهم في أمور دنياهم، ولا لأجل أن لا تضرهم فيها، بل كانوا يعبدونهم لأنهم كانوا يعتقدون في آلهتهم أنهم يملكون الشفاعة عند الله بدون إذن من الله، أو أن الله قد خولهم هذا التصرف الخاص وهو التصرف في الشفاعة، وأنهم يتصرفون في الشفاعة على حسب ما يشاء الله تعالى.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ

تُرۡجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤]، فرد الله تعالى عليهم بأمرين:

الأول: أنهم لا يملكون شيئا لا الشفاعة ولا غيرها. وهذا رد على اعتقادهم أنهم يملكون الشفاعة عند الله بدون إذن من الله، فإن الملك يقتضي صرف صاحبه فيما ملكه بدون إذن من أحد.

والأمر الثاني: أن الشفاعة كلها لله فما من شافع يشفع إلا بإذنه، وليست الشفاعة وحدها لله، بل له ملك السماوات والأرض وإليه ترجعون، فيفصل بينكم ويجازيكم على عقائدكم، وأعمالكم.

فالمشركون من هذا الصنف كانوا يعتقدون في آلهتهم ملك الشفاعة والتصرف فيها حسب ماشاءوا لا حسب ما شاء الله، وكان المشركون يعبدونهم استعطافا لهم وجلبا لرحمتهم أن يشفعوا لهم عند الله .

والصنف الثالث من المشركين: كانوا يعتقدون في آلهتهم النفع والضر، وإنها تجلب لهم الخيرات، وتدفع عنهم البلايا، وتنصرهم على أعدائهم، ويعتقدون أن الله تعالى قد خولهم هذه الربوبية، كما يولي الملوك الولاة على المناطق الصغيرة، فكان هذا الصنف يعتقدون في آلهتهم هذه الربوبية، ومن أجل ذلك كانوا يعبدونهم ويألّهونهم.

وقد ذكر الله تعالى هذا الصنف بقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤-٧٥] ، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢] ، أي واتّخذ المشركون من دون الله آلهة يعبدونها لتجازيهم على عبادتهم بأن تكون بتأثيراتها الغيبية سبباً لعزّهم وغلبتهم على أعدائهم.

وهذه الأنواع الثلاثة من الشرك هي التي كان عليها معظم المشركين من العرب في جاهليتهم، وربّما كانوا

يعتقدون في آلهتهم مجموع هذه المعاني الثلاثة، أو اثنين منها .

واعلم رحمك الله أن قولهم ((إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى)) اعتراف منهم بأن دعاء هم إياهم هو عبادتهم لهم، فكان المشركون في الجاهلية أفقه من كثير من المنتسبين للعلم في عصرنا الذين يجهلون حقيقة معنى العبادة، فيظنّون أنّ طلب المدد من الأموات ودعائهم، والتوسل بهم، وطلب الشفاعة لا يسمّى عبادة لهم، وأما مشركوالعرب في زمن البعثة فلم يكونوا يجهلون أن هذا كله يسمّى عبادة: لأن اللغة لغتهم، ولم يكن لهم عُرفُ دينيٌّ مخصَّصٌ لعموم العبادة اللّغوي، ولا باعثَ على التأويل أو التحريف، فكانوا يصرّحون بأنهم يعبدون أصنامهم ويسمّونها آلهة ؛ لأنّ الإله هو المعبود وإن لم يكن ربـًّا خالقًا، ويقولون كما أخبر الله عنهم: (هؤلاء شفعاؤنا عند الله)، ويسمّونهم أولياء أيضًا ((والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى))»، الآية.

وبيان ذلك: أن الله له الأمر كله وحده، فليس لأحد معه من الأمر شيء، وأعلى الخلق و أفضلهم وأكرمهم عنده: هم الرسل والملائكة المقرّبون، وهم عبيد محض، لا يسبقونه بالقول، ولا يتقدّمون بين يديه، ولا يفعلون شيئًا إلا بعد إذنه لهم، وأمرهم. ولاسيّما يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً، فهم مملوكون مربوبون، أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه. فإذا أشرك بهم المشرك، واتّخذهم شفعاء من دونه، ظنًا منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله، فهو من أجهل النّاس بحق الربّ سبحانه وما يجب له ويمتنع عليه فإن هذامحال ممتنع، شبيه قياس الربّ تعالى على الملوك والكبراء، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج.

وبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام، واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي. والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق، والرب والمربوب، والسيد والعبد، والمالك والمملوك، والغني والفقير، والذي لا حاجة به إلى أحد قط، والمحتاج من كل وجه إلى غيره.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده، فلابد أن يكون عابدًا لغيره، يعبد غيره فيكون مشركًا، وليس في بني آدم قسم ثالث، بل إما موحّد، أو مشرك، أو من خلط هذا بهذا كالمبدلين من أهل الملل؛ النصارى ومن أشبههم من الضلال، المنتسبين إلى الإسلام " (الحسنة والسيئة (ص: ٥٦).

وقال رحمه الله: " فكل من لم يعبد الله مخلصاً له الدين، فلابدّ أن يكون مشركاً عابداً لغيرالله، وهو في الحقيقة عابد للشيطان" (الحسنةوالسيئة (ص: ٥٧).

وقال رحمه الله: "وإلا فمجرد توحيد الربوبية قد كان المشركون يقرّون به، وذلك وحده لاينفع، وهؤلاء الذين يريدون تقرير الربوبية من أهل الكلام والفلسفة، يظنّون أن هذا هوغاية التوحيد، كما يظنّ ذلك من يظنه من الصوفية، الذين يظنون أن الغاية هو الفناء في توحيد الربوبية، وهذا من أعظم ما وقع فيه هؤلاء، وهؤلاء من الجهل بالتوحيد، الذي بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب، فإن هذاالتوحيد الذي هو عندهم الغاية- قد كان مشركو العرب يقرون به، كما أخبر الله عنهم" (درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٤٥).

يبني المُضِلّون شبهاتهم على جميع أنواع العبادة، العبادة التي عبدوا بها غير الله تعالى، كالتوسل به ودعائه وطلب الشفاعة منه وذبح القَرَابين باسمه والطّواف حول تمثاله أو قبره والتَّمسّح بأركانها، وكلّ ذلك شرك في العبادة، شبهتُه تعظيم المقرَّبين من الله

تعالى للتقريب بهم إليه، وغيرُ ذلك. وقد راجت هذه الشبهات الوثنية في أهل الكتب الإلهية بالأهواء الجهليّة. وأوّلوا لأجلها النصوص القطعية، وأجاز بعض منتحلي العلم الديني منهم لأنفسهم وأَتباعِهم من ذلك ما يعدّونه كفرًا وشركًا من غيرهم، إمّابإنكار تسميته عبادةً أو بدعوى أنّ العبادة التي يُتوجّه بها إلى غير الله تعالى لأجل جعله واسطةً ووسيلةً إليه لا تُعدّ شركا به، وما الشرك في العبادة إلّا هذا، ولو وُجّهت العبادة إلى هؤلاء الوُسَطاء لذواتهم طلبًا للنفع، أو دفع الضّرَر منهم أنفسِهم – وهذا واقعٌ أيضًا – لكانت توحيدًا لعبادة هؤلاء لا إشراكًا لهم مع الله عزّوجلّ ((وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء))، والمُخلص لله: من خَلُصت عبادته من التوجّه إلى غيره معه، والحنيف: من كان مائلًا عن غيره إليه، فما كلّ من يؤمن بالله موحدًا له ((وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون))

(انتهى من تفسير المنار٨/ ١٨).

فالعبادة لا تسمّى عبادة في الشرع إلا مع التوحيد، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧] وهؤلاء الذين أفتوا بجواز الشرك يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]

***